الدرس الثاني: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير

يُعدُّ هذا الكتاب من أبرز الكتب النقدية في العصر الأيوبي؛ فصاحبه "ضياء ابن الأثير" من أشهر الكُتّاب آنذاك.. جمع ابن الأثير في هذا المؤلَّف؛ فنون البلاغة في الأدب، ولقي قبولاً محتشماً في الوسط النقدي، ثمّ لم يلبثْ أن هوجِمَ على أساس أن الكتاب؛ لم يخرج عن دائرة التراث النقدي المتعارَف عليه، وأنه ظلّ تحت سلطة الذوق الفردي، الذي لا يرقى إلى إنتاج نظرية جديدة... وكيفما كان الحال؛ فإن نشاط الرجل؛ في مضمار الكتابة النقدية؛ استطاع أن يُحقق مرْغوبه في الفائدة العلمية حتى وإن كانت الفائدة في التجميع والتنويع والتبرير المعرفي..

يحتوي الكتاب على التاريخ والسّيَر والأعلام، وعلى علوم العربية التي لا يفقهها إلا أصحاب الاختصاص في فقه اللغة وفي النحو والصرف، وأنواع التعابير... ويُظهِرُ الكتاب الاطلاع الواسع لابن الأثير؛ على كتاب الله العزيز واستحضار الآيات الشريفة والتّمثّلِ بها حين يستدعي المقام ذلك... كما تنتشر في المؤلَّف الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وفقه السنّة، وأخبار الصحابة، بالإضافة إلى حكم وأمثال العرب، ومأثور كلامهم.

كان ابن الأثير؛ من كبار أدباء العرب، لذلك حاول إرساء "صنعة الأديب" على قاعدة المعرفة الواسعة، ففي رأيه أنّ الكاتب؛ ينبغي له أن يتعلّق بكلّ علمٍ، وفي رأيه أنّ كل ذي علمٍ؛ يُسَوِّغُ له أن ينسب نفسه إليهِ، فيُقال: فلانٌ النحوي، وفلانٌ الفقيه، وفلانٌ المتكلّمُ، ولا يُسَوَّغُ له أن ينسب إلى الكتابة، فيُقال: فلانٌ الكاتب، وذلك لِما يفتقر إليْه الكاتب من الخوض في كلّ فنٍّ...

اشترط ابن الأثير ثمانية معارف؛ للمشتغل على البلاغة أو البيان، ورتّبها على هذا النحو:

1- معرفة علم العربية من النحو والصرف

2- معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداوَلُ المألوف استعماله في فصيح الكلام، غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب.

3- معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوامٍ؛ فإنّ ذلك جرى مجرى الأمثالِ أيْضاً.

4- الاطلاع على كلام المتقدّمين؛ من المنظوم والمنثور، فإن في ذلك فوائد جمة؛ لأنّهُ يُعْلَمُ منه أغراض الناس ونتائج أفكارهمْ، ويُعرف به مقاصد كل فريق منهم.

5- معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء؛ مما يحتاج إليهِ الكاتب في تقليدات الملوك والأمراء، فإذا لم يكن الكاتب عارِفاً بالحكم في الحوادث؛ واختلاف أقوال العلماء فيها، فلأنه لا يستطيع أن يكتب كتاباً يُنْتَفعُ به.

6- حفظ القرآن الكريم؛ فصاحب صناعة الكتابة؛ ينبغي له أن يكون عارِفاً به، حتّى يُضَمِّنَ كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة. والكاتب إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودَعَة في تأليف القرآن؛ اتخذه بحراً يُسْتَخرج منه الدُّرر والجواهر، ويودِعها مطاوي كلامه.

7- حفظ الأخبار النبوية؛ مما يُحْتاج إلى استعماله.

8- ما يختصُّ بالناظم دون الناثر؛ وذلك معرفة العروض، وما يجوز فيه، وما لا يجوز، وإن كان النّظمُ مبنياً على الذوقِ.

اشترط "ابن الأثير" ؛ قبل تحصيل تلك المعارف جميعها؛ أن يكون الله تعالى قدْ ركَّبَ في الأديب طبْعاً قابلاً لهذا الفنّ (أيْ ملكة وموهبة)

اشتغل ابن الأثير بالأدب، فقرأ آثار الكُتّاب المشهورين، ونَقدَ أغلبَ مُعاصريه، مُستدلّاً على نقده إياهمْ؛ بعرضِ نماذجَ من كتاباته، مُوَضحاً الفرق بين أسلوبه وأساليبهم... من الذين تعرّضوا لنقده: القاضي الفاضل، ابن زياد الكاتب البغدادي، أبو اسحاق الصابي، الصاحب بن عبّاد..

من كتب البلاغة والبيان؛ التي نقدها ابن الأثير، ما سيظهر في قوله: « ...وقد ألّف الناسُ في علم البيان كُتُباً...فلمْ أجِدْ ما يُنْتَفعُ به في ذلك؛ إلا

كتاب الموازنة، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب سرّ الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي...»

كما استفاد ابن الأثير من كتاب "البديع" لابن المعتزّ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، وكتاب حِلْية المحاضرة للحاتمي، وكتابيْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ومقدّمة ابن أفلح البغدادي التي ذكر ابن الأثير أنه اقتصر فيها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة. تأثر ابن الاثير في كتابه بعامِلِيْن هما: « العصر الذي عاش فيه، والفن الذي اشتغل عليه؛ والذي أوْصله إلى قمة المجد وذروة النّضج، في أواخر القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع؛ الذي عُرف بالتزام السجع، وتوظيف الجناس واستخدام معاني الشعر وألفاظه في كتابة الرسائل؛ بحلِّ الأبيات السائرة والحكم المأثورة حتى كادت الرسائل؛ تكون شعراً منثوراً...»

تحدّث ابن الأثير في خطبة كتابه؛ عن علم البيان، وذكر أن منزلته في تأليف النظم والنثر؛ بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام، حتى أنّ كتابه عُرف في بيئات الثقافة العربية؛ بثلاث ميزات: هو كتاب "أدب"، وكتاب في "أصول البلاغة العربية"، وكتاب في "النقد الأدبي".

على ذكر النقد الأدبي؛ يرى ابن الأثير أن الذوق السليم؛ هو أكبر من حكم القاعدة الموضوعية، والمعرفة المحدودة، ويشجع على تربية الذوق؛ بكثرة القراءة، ومداومة الاطلاع، يقول: « اِعْلَمْ أيها الناظر في كتابي؛ أنّ مدار علم البيان على حكم الذوق السليم؛ الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب؛ إنْ كان فيما يُلْقيهِ إليْكَ أستاذاً، وإذا سألتَ عمّا يُنْتفع به في فنّهِ؛ قيل لك هذا ! فإن الدربة والإدمان؛ أجْدى عليك نفعاً، وأهدى بصراً وسمْعاً، وهما يُرِيانِكَ الخبر عياناً، ويجعلانِ عُسْرَكَ من القول إمكاناً، وكل جارحة منك قلْباً ولساناً، فخُذْ من هذا الكتاب؛ ما أعطاكَ، واستنبطْ بإدمانكَ ما أخطاك، وما مثلي فيما مهّدْته لكَ من هذا الطريق، إلّا كمنْ طبع سيْفاً، ووضعه في يمينكَ لِتُقاتل به، وليس عليْه أن يخْلُقَ

لك قلباً، فإنّ حمْل النّصالِ غير مباشرة القتال..!» فعلاً... لله درّ شيوخ النقد العربي، إنهُ النقد الصافي القائم على الذوق النقي في أخلص تجلياته...! ينْبُع من الفطرة ويطرد التقليد الممجوج...